الفصل الاول

في

الدولة العباسية

كانت الخلافة في أول أمر المسلمين شوري يختار القوم لها من وجدوا فيه الكفاية ، فلما كانت الفتنة بين بنى أمية وغيرهم من بقية المسلمين لا سيما أهل الأمصار أيام عثمان وعلى رضى الله عنهما ، انقسم العالم الأسلامى قسمين ، قسم يرى الطاعة لبنى أمية الذين كان بيدهم السلطان والقوة ، وقسم يرى أن لا طاعة إلا لبنى هاشم . أضف إلى ذلك فرقة الخوارج التي دوخت بنى أمية من غير أن يكون لها فيه سلطان طويل البقاء

كان الميل إلى بنى هاشم أكثر انتشاراً فى فارس منه فى غيرها من بلاد المسلمين ، ومصدر ذلك أن مكان هذه البلاد من المسلمين لم يكن مكان الصديق فقد سلبها المسلمون ملكها القديم ، فهى تتربص بهم الدوائر وتود لو وجدت فرصة تمكنها من الخروج وقلب السلطان . ولقد كان بنو أمية من الحرص على القوة والبأس ، ومن الرغبة فى الاستئثار بالملك والسلطان بحيث أهملوا تطبيق قاعدة من أظهر قواعد الأسلام وأسماها وهى المساواة المطلقة بين الشعوب المسلمة عربية كانت أم غير عربية فكان هذا الاهمال قاضياً على دولتهم من جهة ، ومسيئاً إلى دولة الأسلام

من جهة أخرى لأنهم أهانوا الفرس وأستعبدوهم ، فمال هؤلاء إلى بنى العباس وآزروهم ، ونشأ عن هذا الميل الذي كان يؤيده انقسام العرب على أنفسهم ، ما كان من قيام دولة بنى العباس وسقوط الدولة الأموية

قامت الدولة العباسية على يد الفرس من أهل خراسان ، فتولوا رعايتها حتى ساموا مقاليد الخلافة إلى أبي عبد الله السفاح ، فكان هذا داعياً لاتخاذ الخلفاء أنصارهم من الفرس دون العرب، فقربوهم وأدلوا إليهم بالنفوذ والسلطان في الدولة ، فقلدوهم الوزارة ، فتوجهت نحوهم الأنظار ، وأم دارهم القوم ، فظهر بأسهم ، واستفحل أمرهم ، وعلت فى الدولة كلمتهم ؛ غير أن الدولة لم تكد تنهض حتى كان بين الخلفاء من العرب وأنصارهم من الفرس ما كان من مساءة فى أيام بنى أمية ؛ يريد هؤلاء أن يستأثروا بالملك . ويريد أولئك أن يشاركوهم فيه ؛ ومن هنا كان قتل أبي مسلم الخراسانى فى أيام المنصور ، والفتك بالبرامكة فى أيام الرشيد ؛ ومن هنا كان السبب الأول في ضعف الدولة العباسية

على أن الدولة الأسلامية كانت في هذا الأوان قد بلغت شأواً كبيراً من العظمة والحضارة والمدنية والعلم لم يصل إليه غيرها ، فكانت بغداد إذ ذاك مدرسة يؤمها الناس من كل جهة ، كما كانت مركز القوة والسلطان على العالم الأسلامى بأسره خلا دولة الأندلس ؛ وكما كانت بغداد كعبة العلم ومهبط الحضارة ومشرق الفلسفة ومنبع الحياة القومية ، كانت كذلك عاصمة الدولة وسيدة البلاد الأسلامية وصاحبة السلطان عليها كلها ، يعزها الخليفة ويعتز بها ، ليس لوالٍ من الولاة إلا الخضوع والخشوع لأمر

الخليفة فيها ، لا يجسر واحد منهم أن يطمع فيما ولى عليه ، ولا يجنح أمير إلى معصية الخليفة . فنمت الثروة وازدادت رفاهية الرعية واطمأنت النفوس ووصلت الأمة الأسلامية إلى عصرها الذهبي

على هذا صارت الدولة الأسلامية عظيمة بخلفائها ، قوية بجندها ، محترمة بتماسك أطرافها ، متقدمة بعلومها وثروتها ، تهابها الدول المتاخمة لها ويخشى سلطانها أمراء أطرافها

بيد أنه في ذلك العصر العظيم الذى بلغت فيه الدولة مبلغها من القوة كان الرشيد قد أقام دولة بنى الأغلب فى شمال إفريقية لتحول بينه وبين الشيعة الذين كانوا قد أقاموا لهم دولة في مراكش هى دولة الأدارسة

جاء بعده ولده المأمون وولى طاهر بن الحسين بلاد خراسان والجزيرة لما كان له من اليد الطولى في إخماد نار الفتنة التى قامت بين المأمون وبين أخيه الأمين . فلما ثارت ثائرة القوم بعد مقتل الأمين وقام طاهر باطفاء لهيبها ، جعل المأمون ولاية طاهر إرثاً لأعقابه من بعده ، فتكونت بهذا دولة أخرى هى الدولة الطاهرية . وتبعت ذلك دويلات قامت باستقلالها فى بعض الأطراف

ولما كان طاهر هذا من الموالى قويت شوكتهم ، وتتطلع الأمراء والولاة إلى مثل ما وصل إليه طاهر وأولاده . فتحفز كل منهم إلى الوثوب واستعد للنهوض متى أمكنته الفرصة

ولقد ساعد هؤلاء الطامعين ميل المأمون والمعتصم إلى اقتناء الموالى واستكثار الثانى من شبان الأتراك الذين كانت توفدهم أمراء الجهات إلى

الخلفاء بالهدايا وغيرها . فكان الخلفاء يختارون من بين هؤلاء أحسنهم خَلْقاً وأقواهم بنية كما يقول جورجى زيدان فى كتابه «التمدن الأسلامى» لاستخدامهم فى بلاطهم وأطلقوا عليهم اسم المماليك

استكثر المعتصم من هؤلاء المماليك لثلاثة أسباب . أولها أن أمه تركية الأصل ، ففيهم أخواله وأنصاره وفيه كثير من طبائعهم . وثانيها أنه عمل بوصية أخيه المأمون في التحرز من الفرس لأنهم موتورون قديماً وحديثاً ، وقد كادوا يخلعونه هو من الخلافة ، وهم الذين قتلوا الأمين . وثالثها خوفه من العرب ، وهم الذين كان العباسيون كلهم يخشون بأسهم لأنهم أنصار الأمويين وبهم قامت دولتهم من جهة ، ولأن فيهم أنصار العلويين من جهة أخرى . وهم الذين لم يغفلوا لحظة واحدة عن إثارة الفتن كلما وجدوا لذلك سبيلا . لهذا كله رأى المعتصم أن يتخذ له جنداً غير هؤلاء جميعاً . فاستكثر من المماليك وكون منهم جيشاً يعزه ويستغنى به عمن سواه ، ويزيد بعض المؤرخين أنه إنما ركن إلى هؤلاء لأنه ظن أن ليس لهم مطمع قديم يريدون إدراكه . ولم يدر بخلد المعتصم أنه بركونه إلى هؤلاء قد ركن إلى عنصر يخالف قومه فى العادات والأخلاق واللغة ، وغاب عنه أن لهم وطناً يحنون إليه ويذكرونه ، وأن فيهم من كان ذا بيت عريق فى المجد قد أزاله الأسلام ، فاذا ما سنحت له الفرصة ركن إلى إعادة عزه القديم ومجده السالف . غاب كل هذا عن المعتصم فأدلى بالخلافة وعزها والأمور ومقاليدها إلى أيدى هؤلاء الغلمان وهم مختلفو الغايات متباينو النزعات ، فتمشى فى الدولة الضعف الذى لم تستطع يوما ما بعد ذلك أن تقاومه أو تقاويه ، حتى ذهبت

كمن سبقها من الدول ونعاها الناعون وكأني بحافظ إبراهيم وهو يقول :

واهاً على دولة بالأمس قد ملأت ... جوانب الشرق رغداً من أياديها
كم ظللتها وحاطتها بأجنحة ... عن أعين الدهر قد كانت تواريها
من العناية قد ريشت قوادمها ... ومن صميم التقى ريشت خوافيها
والله ما غالها قدماً وكاد لها ... واجتث دوحتها إلا مواليها
لو أنها في صميم العرب قد بقيت ... لما نعاها على الأيام ناعيها
ياليتهم سمعوا ما قاله عمر ... والروح قد بلغت منه تراقيها
لا تكثروا من مواليكم فان لهم ... مطامعاً بسمات الضعف تخفيها

وجد المماليك أنفسهم ولا منازع لهم في سلطان الدولة، فتفردوا بالملك واستأثروا بالكلمة ، وأصبحوا ولا منافس لهم لا عرب ولا فرس ، فاستبدوا حتى على الخلفاء ، فامتدت أيديهم إلى أموالهم وأرواحهم ، ففقدت الأمة مكانتها وضاعت مهابتها ، فطمع فيها الطامعون من الولاة وغيرهم

رأى عمال الأطراف ماوصل إليه حال الخلفاء في بغداد ، فوجدوا في هذا أحسن فرصة للاستقلال بما في أيديهم، لأنهم يرون أنفسهم أحق بالاستئثار من هؤلاء الأعاجم ، فاكتفوا بارسال جزء من الخراج إلى بغداد ، وذكر اسم الخليفة على المنابر في المساجد حتى لاتثور العامة عليهم ثم ينتهزون موت خليفة وقيام آخر ، فلا يدخلون تحت طاعته الأسمية هذه إلا بشروط تزيد في موقفهم قوة واستقلالا ، وما زالوا كذلك حتى قويت شوكتهم فكان لهم من الخلافة مسماها وللخلفاء اسمها

على أنه بعد حين غير طويل وقع الخلاف بين هؤلاء الغلمان وصاروا يقتتلون حتى جاءت دولة بني بويه الديلمية وغلبتهم على أمرهم ونزعت ما كان لهم من السلطان والقوة . ولما كانت هذه الدولة شيعية تغالى فى التشيع لأولاد علىّ ، كادت تخرج بالدولة وتلقى بها إلى أيدى العلويين ، فيعترفون لها بالجميل ويدينون لها بالفضل فيحلونها منهم محل الأخلاص والولاء

ليت شعرى ماذا كان ينتظر هؤلاء الديلم من خلافة علوية فوق ما كان لهم من النفوذ والسلطان فى الدولة العباسية ، ذلك النفوذ الذى كان يطاح بالخلفاء إلى حيث يريدون ، إما خلع وإما قتل وتمثيل مما تقشعر منه الأبدان لمجرد سماعه . ألا إنما هو الطمع يقود الجماعات والأمم فيقذف بها فى تيار جارف يهلكها من حيث تظن أنه منجيها ومنقذها

على أى حال فقد غالبهم الأتراك السلاجقة على سلطانهم حتى غلبوهم وقهروهم وحلوا محلهم ، فدانت لهم البلاد من الفرس الى البحر الأبيض المتوسط ، وأعادوا أسيا الصغرى إلى حكم سلطان واحد ، وأحيوا بذلك الغيرة الدينية في قلوب المسلمين ، تلك الغيرة التى كاد يقضى عليها الديلم ، ولم يقتصر عمل الدولة السلجوقية هذه على منابذة الديلم فحسب ، بل قامت تناوىء العلويين فى الشام ومصر حتى كادت تدخل هذا القطر

وكان من نتيجة قيامهم وظهورهم هذا أن وُجدت روح جديدة في الأمة الأسلامية أوجدت محاربين أكفاء يرجع لهم الفضل الأكبر في إذلال الصليبيين وقهرهم

لما ظهرت الخلافة والخلفاء بمظهر الضعف والاستسلام للولاة ، أنشأ

هؤلاء وظيفة (أمير الامراء) وصار يخطب لهم على المنابر في المساجد فيذكر اسمهم بعد اسم الخليفة فكان لأمير الأمراء من المنزلة في عيون الأمراء الآخرين ما جعل ولاة الأمارات يطمعون في منصبه متى آنسوا من أنفسهم قوة، وأمير الأمراء في هذا يحيط نفسه بسياج من الموالي، حتى إذا ما قضى نحبه وجدت هؤلاء الموالي وقد تقاسموا تراثه وتنافسوا على السبق لمركزه

على أنه ما كان أمير الأمراء ليكتفي بالأكثار من الموالي بل تراه وقد أقام حوله من ظهرت كفاءتهم العسكرية أو السياسية ليكونوا درعه المتينة وحصنه المنيع اذا دهمته الفتن وثار عليه الثائرون، ولكن الآية قد لا تلبث أن تنعكس عليه فيصبح أعوانه أعداءه ويكون على أيديهم هلاكه

على هذا النظام قامت الأمارات التي كانت تتبع أمير الأمراء، فاذا رحل عن هذه الدار استولى كل وال على ولايته وقام القوي منهم يناوئ الضعيف، هذا عدا ما كانت تقوم به أولاد أمير الأمراء نفسه من اقتسام ما بقي لهم من ملك أبيهم

كان هذا النظام سبباً في انحلال عرى الدولة العباسية العظيمة التي ظهرت بمظهر جليل يعدل في القوة والبأس ما سبقها إليه اليونان والرومان، ولكن الخلفاء حادوا عن طريق الهدى واتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا «فقربوا منهم من لم يعرفوا من الدين آدابه، ليس لهم هذا القلب الذي راضه الأسلام، ولا ذلك العقل الذي هذبه الدين، بل جاؤوا بخشونة الجهل يحملون أعلام الظلم، فظهرت المفاسد وعم شررها القاصي والداني، فنخرت سوس الشقاق والطمع عظام الدولة حتى أبادتها »

هذا ولما كان من طبع الأنسان الحرص على ما في يده لآخر لحظة من قدرته وُجدت الأسرات التى أفادت وقتاً ما الدين والدولة ؛ ولعمرى لقد كانت فائدة وقتية قل أن يطول زمنها إلى أكثر من قرن أو قرنين ؛ ولقد كان هذا النظام سبباً فى ظهور الأسرات التى قامت تناوىء الطامعين من الأمم الأجنبية فلولاه لما ظهرت الأسرة الأتابكية والأسرة الكردية اللتان يذكرهما التاريخ بكل إعجاب دون أن ينسى لهما ما قامتا به نحو الشرق والشرقيين من الخدمات الجليلة في رد غارات الصليبيين وتوحيد كلمة المسلمين في قطرين من أقطار العالم الأسلامى بعد أن مزقتهما أيدي الاختلافات الدينية الحزبية وهذان القطران هما مصر والشام